

نماذج تطبيقية حول مؤثرات الفلسفة الوجودية في القصة السورية المعاصرة

١ - مقدمة :

الشخصية الثانية : « هي » : امرأة شابة لامبالية تحدثه عن « أزمته » واضطراباته السيكلوجية وسادته الذاتية ، وتنسأفه ، ونقافته ، ورفضه وسقوطه ، وفشله ، وجوعه الجنسي ، وهروبسه ، طارحة الى جانب ذلك مفاهيمها الفلسفية حول السببية ونظرتها نحو الحياة ، وعدم اكرانها بالحياة وبه « هو » . وهو يفسر لها أزمته النفسية الحادة ، ووضعها الحيائي بكونه انسانا وجوديا ، وغشيانه ، وحيه لامتلاكها ، كما كان يفعل بطل (ليرتو مورافيا) في روايته الوجودية « السأم » . موضحا عدم قدرته على امتلاكها بكونه يشكل إحدى حالات اللانتمى .

ويحدثنا ايضا حول صراعه مع الحياة التي بدت بالنسبة له منغلقة لا يستطيع ولوجها .

اثر هذه المناقشة الفلسفية بينه وبينها ، والمتضمنة مقولات فلسفية جاهزة ، واسقاطات نفسية متشعبة ، وامام مظهرها هي الجذاب والمفري ، نشاهده هو (اللانتمى) يقوم منصرفا دون أن يستطيع امتلاكها جسديا اثر رغبته بذلك ، وينصرف دون أن يودعها واضعا يديه في جيبيه معبرا عن انطوائه وتفرده .

ب - تحليل القصة :

الشخصيتان الوحيدتان في القصة داخل غرفة حيث « الضوء ينهمر من وراء طوس بلورية كريمة » ، وهي تحدثه عن أزمته بصديق ، فنعلم بأنه صاحب ازمة ما يعانها ، وتتضح هذه الازمة عندما تكتشف هي شيئا يسيرا من « سادته الذاتية » او (ماسوشيته) . عشقه لذاته ، وتعذيبها ، وانطوائه على نفسه ، وحب الذات خاصة مسن خصائص الانسان الوجودي .

« فمن يستطيع ان يحول دون ان تجلد نفسك عندما ترغب انت بذلك » .

من خلال هذه الملاحظة البسيطة تتضح لنا نفسية الانسان الوجودي ، الذي يستطيع ان يجلد نفسه ، اذا ما رغبت ذاته بذلك ، معبرا عن مشاعره الذاتية الحرة وارادته الذاتية (ماسوشيته) التي يقدها ويتبعها .

وراء خلفية هذه المعاناة الذاتية تكمن مأساته الحقيقية في الحياة اثر محاولته ان يوحد بين ذاته « الانا » وبينها « هي » او الفيسر حسب مفهوم (فرويد) للتجسس الشخصي ، والغير هنا « هي »

« كانت التطبيقات الادبية للتيار الوجودي في الفكر الاوروبي قد بدأت تصل تباعا ، وكانت مؤلفات سارتر وكامو القصصية والروائية ، تصل تباعا « الى الاعمال القصصية والروائية العربية . واصبح لدينا « ميرسو » عربي متطابق للامسح والقسمات مع « ميرسو » الفرنسي . وتعددت المحاولات القصصية والروائية التي تفيض عنه بالحديث عن الغربة والعبث والانخلاع عن الواقع « او ما يسمى « بالقلق الوجودي » (١) .

وهذا ما نشاهده بشكل ظاهر عند (جورج سالم) و (خليل النعيمي) و (مطاع صفدي) اما بالنسبة لقصص (زكريا تامر) و (عادل ابو شنب) و (حيدر حيدر) و (حنا مينه) فهي قصص ملتصقة اشد الالتصاق بواقعا العربي وقضاياه القومية والاجتماعية ، الملحة والمصيرية منها بشكل خاص .

٢ - قصة (الانزلاق الى الداخل) للدكتور خليل النعيمي (٢)
أ - عرض القصة :

القصة حسب طبيعتها الفلسفية لا تتقبل طريقة السرد القصصي او الحكاية القصصية ، مما يحول دون عملية اختصارها وتبسيطها الى جانب خلوها من الاحداث المتسلسلة ، واعتمادها تيار الوعي الثقافي للفلسفة الوجودية بواسطة مناقشة فلسفية متسلسلة بين شخصيتين القصة الوحيدتين :

الشخصية الاولى : « هو » : شاب برجوازي يتصف بالغربة والوحدة والانطواء ، وبمفهوم اعم « اللانتماء » (٢)

(١) : مجلة المعرفة - في العلاقة بين الفكر والادب (صفوان عدسي) العدد ١٢٦ آب ١٩٧٢ . خاص عن النقد الادبي .

(٢) : نشرت قصة الانزلاق الى الداخل في مجلة « الطليعة الديمقراطية » العدد (٢٢٩) نيسان ١٩٧٢ .

(٣) : (اللانتماء) : مفهوم وجودي متشعب طرحه (كولنولسن) في كتابه (اللانتمى) والبطل في قصة (الانزلاق الى الداخل) يمثل إحدى حالات اللانتمى المتشعبة . بكونه يمثل حالة الانسان المثقف الوجودي الراض مقتريا من غشيان « روكاتنان » بطل (سارتر) . ترجم كتاب (اللانتمى) انيس زكي حسن وصدر عن دار الاداب .

المراة ، وبمفهوم اوضح - الانخراط في الفير - او الانتماء الجسدي وممارسة الحب :

« لا أستطيع ان اكسبك الى جانبي أن احوز عليك ، أي بمعنى ان نغدو - أنت وأنا - كلا واحدا ... أي ان امتلاكك بشكل وأمتلاكيني أنت بنفس الشكل ، المهم ، اني لا أستطيع ان افعل شيئا من هذا القبيل الا بموافقتك » .

فهو لا يستطيع ان يوجد بين ذاته «أنا» وبينها هي ، الفير . فالذاتية ، وهي الخاصة الأساسية لانتولوجية الانسان وسيكولوجيته الانعزالية - تلاحقه دائما ، بكونه انسانا وجوديا ولامنتيا ، حيث نشاهد انكلمة التالية « كلا واحدا » تؤكد على مفهوم الاندمج والنزايط والانتماء ، وهو بذلك لا يستطيع ان يكون معها « كلا واحدا » .

وهذه نفس حالة بطل رواية « السام » لـ (ألبرتو مورافيا) اثناء طرحه مشكلة صراع اللانتماني امام السام والضجر ، امام ثوقمته الذاتية .. بسبب ضرورة انتمائه الجسدي (الحب) :

« الامتلاك الجسدي لم يكن في العادة الا تكرار امتلاك ذهني سابق ، أي أنه كان يؤكد السام .. أحسست مباشرة ان الامتلاك على العكس ، عجزني عن امتلاكها حقيقة ، لقد حاولت طويلا ان أقسو معها ، أضمرها وأشدعها ، وأعضها وألج فيها ، ولكني لم أستطع ان امتلك سيسيليا .. وانتهى بي الامر ان سقطت واهن القوى » (٤) .

ومن خلال هذا المقطع نتبين تأثر (خليل النعيمي) في ناحيتي الشكل والمضمون بأبـ (البرتو مورافيا) ، فقد كان بطل « الانزلاق الى الداخل » يروح تحت « لحافه الذاتي » مبررا فشله وسقوطه امام القدرة العملية لامتلاك جسد امرأة مثيرة ، وفي « السام » كان البطل يروح تحت مفهوم (السام الذهني) اثناء محاولته الجاهدة لشعوره بامتلاك جسد سيسيليا .

اما بالنسبة لها هي في « الانزلاق الى الداخل » فالمرأة بالطبع لا تمتلك البادرة الجنسية الأولى ، والى جانب ذلك فهي تصباني مشكلة لا يمكن لي ان احلها طابع المعاناة ، لانها مشكلة ذاتية ، تنفي نفسها بنفسها ، وذلك لكونها تنصف باللامبالاة وتتوصل الى نتيجة النسبية ، والنسبية بطبيعتها الفلسفية والتأملية لا تعتمد على المقاييس الثابتة والقوانين الجامدة والروتين المألوف ، حيث يمكن للامر الصغير ان يكون كبيرا اذا ما قيس بالنسبة لامر اصغر منه ، وان يكون صغيرا اذا ما قيس بالعكس ، وعكس هاتين المعادلتين صحيح ايضا ، ومن خلال هذه المعادلات التفاضلية الاربعة نتجلى مفهوم اللاخيفة لديها ، وهو من خواص (اللانتماني) (٥) . ومفهوم « اللاخيفة » هذا يأتي تعبيراً صادقا عن اللامبالاة التي تتمسك بها هي حيث تقول :

« واليوم لا فرق عندي بين باريس ودمشق

ولا بينك وبين ابو احمد » .

كما ان ضحكاتها المتكررة ، ومظهرها الخارجي المتسردى السذي يبيحه لنا الكاتب عبر لقطات تصويرية دقيقة لمفاتيح اردافها وساقبها الظاهرة يوحي لنا بحقيقتها مبالاها .

وإذا ما عدنا اليه « هو » والى مأساته التي تسيطر عليه بكونه انسانا وجوديا ولامنتيا بنفس الحين ، ولا اعني من خلال هذا التحليل بأن كل انسان وجودي لا يريد ان ينتمي (بمفهوم الانتماء الاجتماعي وليس الانتماء السياسي) ، بل من الممكن ان يكون او لا يكون ، وبكونه وجوديا ولامنتيا بنفس الحين فانه يمثل اهم

(٤) : رواية السام لالبرتو مورافيا - ص (٢٠) الترجمة العربية

لسدان الاداب .

(٥) : بحث كولن ولسن مفهوم اللاخيفة في اللانتماني ص (١١) .

الشخصيات التي بحثها (كولن ولسن) في كتابه اللانتماني حول مفاهيم (هيدجر) و (شبلنج) .

وعلى حد تعبيره هو :

« احاول ولوج دار الحياة ودار الحياة هي الحياة نفسها مقلدا عليها باحكام » .

وهنا يظهر لنا نفي الحياة وعدم الانتماء اليها اثر تصورهما حياة غريبة منغلقة على نفسها باحكام . وهي تتكلم على لسانه :

« مثقف متمرد معاصر لا اعرف كيف انفي عن نفسي تهمة السقوط والفشل » .

فالتمرد والرفض من خصائص اللانتماني ، لكنه لا يعرف كيف ينفي عن نفسه تهمة السقوط والفشل ، وهذا الطابع التقريري ندرکه في اغلب القصص الفلسفية والفكرية والنفسية ، ولكن ما مبرر سقوط وفشل بطل القصة ؟ وهل بسبب جوعه الجسدي الى الجنس كما تقول هي ؟ :

« وليس بسبب اخر غير جوعك الجسدي » .

وهنا نقترّب من نظرية (فرويد) القائلة بان الجنس يشكل حاجة طبيعية فيزيولوجية مادية لا فرار منها ، بينما هو في القصة يحاول ان لا يرتبط بالحياة مستخدما « امكانية البهولة » كما تقول هي مدركة الطبيعة الفيزيولوجية الى الجنس لدى الانسان :

« ان لك امكانية بهلوان فطرا في اللص على نفسك وليس على الاخرين » .
« انك قادر ببساطة ان تغطي اي دعوى ضدك بلحافك الذاتي » .

فهو يستخدم « لحافه الذاتي » او وحدته وتفردته كتنازع ازاء كل ما يتهم به ، حتى انه يحارب الفشل والسقوط بتقدّيس الذاتية ، وهذه هي حقيقة جديدة تتبينها عن فشل الانسان (اللانتماني) ازاء الجنس على خلاف (ميرسو) بطل (البير كامو) في روايته الوجودية « الغريب » حيث (خليل النعيمي) يبحث مدى امكانية عيش الانسان منفردا - مستخدما بذلك جميع الروابط الحياتية من نفسية سيكولوجية واجتماعية ، وفيزيولوجية مادية ، وامكانية التخلي عن هذه الروابط لتمثل حالة اللانتماني الكامل (و خليل النعيمي) يضع (الحاجة الجنسية) كمثرة حياتية امام تحقيق هذه الحالة التسمائية من حالات اللانتماني .

وهذا المفهوم « تقدّيس الذاتية » يرينا لماذا لا يستطيع ان يخترق في الفير ويشكل كلا واحدا - أنت وأنا - فهي تصفه بالتناظر ، وهو ينزلق الى داخل نفسه ضمن مخابته الذاتية ، حتى انه ليصف نفسه بالحق وتهب ارادته الذاتية التي يقدها ويتبعها لتقول له :

« قم .. قم .. أيها الاحمق » .

« وندم كثيرا لانه سمح لنفسه ان تلتحم معها في هذه المناهة » .

وشعر اثر ذلك بانه انما كان مدعيا عندما شاهد نفسه يسقط سقطته لا نهائية ، « واحس بثقيان متسلط في نفسه .. وانصرف بهدوء ، وبداه في جيبه » بينما هي « مترددة في ان تناديه في ان تطلب منه البقاء ، واخيرا وحيدة ، وحيدة جدا » .
ج - تعليق حول القصة :

من خلال التحليل السابق الذي بينت فيه اهم القضايا التي تستعرضها قصة « الانزلاق الى الداخل » . ورغم صغر حجمها كقصة قصيرة ، فقد عنيت بكل هذا التشتت الفلسفي ، وكلفت بما لا تستطيع طاقتها الثقافية والادبية ان تتكلف به ، مما جعلها شبيهة برواية مكثفة جدا ومختصرة جدا ، معدومة الحوادث ، وبشكل عام فاننا نلاحظ تأثر القصة العربية القصيرة بالرواية الاجنبية ، مثل روايات (سارتر) و (كامو) و (تشيخوف) و (داستوييفسكي) منهم بشكل خاص ، حيث نلاحظ ذلك عند (جورج سالم) و (عبدالسلام

العجيب (في قصصه الأولى فقط (٦) ، وهناك العديد من القصص العربية القصيرة تحمل عناوين مثل « الغريب ، وهملت ، وعطيل .. » .

ويكون قصة « الانزلاق الى الداخل » تتضمن هذه الأبعاد الفلسفية المتشعبة والمعقدة ، فقد فقدت كثيرا من قيمها الفنية كقصة ادبسية قصيرة ، من ناحية شخصياتها وحركتهم ، فقد جاؤوا متصفين بالجمود ، ويقتصر دورهم على عرض افكارهم الفلسفية ومشاعرهم الذاتية من خلال مناقشة كلامية جافة ومتشعبة ، اما بالنسبة للاسلوب ، الناحية الأهم في الشكل القصصي ، فقد جاء تقريريا - مجردا ومهيا قبل عملية الخلق القصصي ، حيث حمل المؤلف تعابيره القصصية تعاريف فلسفية ومصطلحات جاهزة مثل : « سيكولوجية - ساديتيه الذاتية - مفولاته .. » . وبهذا فقد فقدت القصة معظم صفاتها الفنية من ناحية الشكل يكون « التثنية في القصة القصيرة مجهود شكلي في معظم عناصرها » (٧) .

والقصة كما رأينا تشكل نقلا حرفيا للمفاهيم الوجودية فسي المجتمعات الرأسمالية المتطورة ضمن نطاق الطبقة البرجوازية بشكل خاص (٨) . ومثل هذه الحالات النفسية لم توجد بعد عند انساننا البرجوازي الذي اختاره الكاتب موضوعا لقصته ، ولا يمكن لنا ربط القصة بأي شكل من الاشكال بواقفنا الاجتماعي في بلداننا النامية ، ومثل هذه الحالات الذاتية انخاصه تمثل فلق الانسان البرجوازي في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة (٩) .

وإذا كان كتاب مثل (سارتر) (والبرتو مورافيا) (وهمنفواي) (وكولن ولسن) يعالجون مثل هذه القضايا النفسية حول ضياع الانسان وتمزقه الروحي والعاطفي ، وسأهم ، وارهصاصه النفسية ، ومشاعره الذاتية ، راسمين اطر الفلسفة الانسانية المعاصرة ، فانما يعود

(٦) : يمكن أن نرجع بهذا الشأن الى قصته (ثلاث رسائل اوربية) في مجلة المعرفة - نيسان ١٩٧٢ وهي تشابه طريقة دستوفسكي في روايته الرومانسية (تسع رسائل) في ناحيتين ، الطريقة او التركيب الهيكلي والشكل (الاسلوب الرومانسي) .

(٧) : انظر كتاب الشمس والعنقاء لخلدون الشمعة ص (١٤٠) . صدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٧٤ .

(٨) : لخليل النعيمي رواية بعنوان (الرجل الذي ياكل نفسه) صدرت عن - دار العودة - بيروت - ١٩٧١ - وهي رواية وجودية تأخذ نفس المنحى الذي نلاحظه في قصصه القصيرة كما في « الانزلاق الى الداخل » متضمنة نفس الاسلوب الفلسفي التقريري المباشر ، حتى انها تستعرض آراء الفلاسفة الاجانب ضمن الرواية امثال (المركيز دي ساد) ص (٨) ومصطلحات فرويد في التحليل الشخصي «الاناوالهوا» ص (٢٢) و (داروين) ص (١١٨) . ورغم تفرعها لموضوعات التنكسة الجزيرانية من خلال منظر ذاتي تفسيري وتحليلي ، فان هذا الزخم الفكري والفلسفي يشكل انماطا جاهزة ومستوردة .. والى جانب ذلك فهناك قصص (لخليل النعيمي) اقرب ما تكون الى الواقع العربي منها الى الفلسفة الوجودية المستوردة . وتحاول هذه القصص ان تتلمس ازمة النفس العربية بواقعية من خلال التطرق الى (ازمة الجنس) في واقفنا . كما في قصته القصيرة جدا « النبع » رغم تمثيلها بعض الشيء اسلوب (سارتر) في (دوب الحرية) وقد نشرت قصة النبع في جريدة البعث - ٢٦ - ٦ - ١٩٧٢ .

(٩) : يمكن ان نرجع بهذا الشأن الى كتاب « نقد علم الاجتماع البرجوازي المعاصر » الذي يبين لنا اهم الفلسفات المنتشرة فسي الغرب ومدى استفلال الطبقة البرجوازية الرأسمالية لهذه الفلسفات الحديثة . صدر الكتاب عن سلسلة الافكار بدمشق وقام بترجمته « نزارعيون السود » .

ذلك الى طبيعة الوضع الحضاري المتنازم الذي يعيشونه ويرضخون لايقاعانه الرئيبه في مجتمعاتهم الرأسمالية .. وهذا مما يصيغ اعمالهم الادبية منها والفكرية بطابع المعاناة الحياتية الصادقة والحية .

اما بالنسبة لنا ، نحن مجتمعات البلدان النامية التي لم تدخل بعد طور المجتمع الصناعي الحديث ، فان مثل هذه القصص الدخيلة والمنقولة تفت حائلا امام تفاعل انساننا معها ، وقد تفيد المترجمات العربية حول الادب الوجودي كاطلاع ثقافي حول الوضع الاجتماعي للمجتمعات الرأسمالية ، اما مثل هذه القصص المنحولة والمستوردة فلا بد لفارئنا الجاد والواعي ان يلحظ فيها التصنع كونها قصصا غير واقعية ، ولا تحمل جذورا اصيلة بالنسبة لواقفنا ، ويكون انساننا لم يصل بعد الى تلك المرحلة من الرفاهية التي يعيشها الانسان في المجتمعات الرأسمالية .

والقصة بطبيعة الحال تشكل خيطا يربط بين كل من « البرتو مورافيا وسارتر وكولن ولسن » حيث نشاهد العودة الى النفس كما وضعها (كولن ولسن) في كتابه « الامتني » أثناء بحثه عن (مسألة الذاتية) وهي نفسها « الانزلاق الى الداخل » الانزلاق الى داخل النفس الانسانية وكشف خباياها وهواجسها ، وغثيانها ، واللامبالاة التي تتصفبها هي ، تشاهدها مجسدة في اغلب الشخصيات النسائية التي يصفها لنا (البرتو مورافيا) في رواياته وخصوصا «السام» .

نحن بلدان العالم الثالث ، بلدان الفقر والفقر والبؤس والشقاء ، بلدان عانت الظلم والقسر والاستلاب الاقتصادي عبر سنين طويلة وما زالت مواردها الاقتصادية بحالة استلاب من قبل الدول الصناعية الكبرى ، وما زال الاستعمار القربي الجديد ، الاستعمار الاقتصادي المقتع ، يجم فوق اجزاء من ارضنا التي لم تستيقظ بعد ، ويسلب مواردها الطازجة ..

نحن البلدان التي ما زالت تسعى جاهدة نحو الخلاص من ازماتها الاقتصادية .. وتكافح في سبيل تحررها الاقتصادي المستقل ، وارضيتها الصناعية المتطورة ، على اساس ايدولوجي متين في تطبيق الوحدة والحرية والاشتراكية ..

نحن البلدان التي ما زالت تسعى جاهدة لكسر حلقة الجمود والتخلف ، نحو الانبعاث التجديد - ان هذه القضايا الاساسية تصعنا امام حد فاصل بين ما هو كمالي وما هو ضروري في سبيل التحرر الاجتماعي والاقتصادي ، وما هو وقتي ولحظي وفصولي وتقليدي تستورده البرجوازية العربية في سبيل خدمة رفايتها .

كل هذه المسلمات تصعنا امام حدي النقيض بين ما هو رأسمالي وما هو اشتراكي .

ان هذا التمييز بين القضايا سوف نلاحظه في قصة « رايسات صغيرة لبوابات الصمت الخرساء » (لابراهيم الخليل) حيث ستكون الانموذج الثاني لموضوع بحثنا .

١ - عرض القصة (١٠) :

تحكي القصة سيرة حياة شاب عربي ينتمي الى طبقة القطاعية عريقة في ريفنا . ويسافر الشاب الى بلد اجنبي من اجل ان يتابع دراسته الطلية في الطب . لكنه هناك في اوربوا يعاقق « الحياة الحقيقية » . بكل منعها ولدانها مبهورا مندھشا ، مما يؤدي به الى ان يفشل في دراسة الطب التي سافر من اجلها ، ومن ثم يرجع الى بسلاده

(١٠) : نشرت قصة (ابراهيم الخليل) لأول مرة في جريدة الثورة ذات الدليل الادبي « العدد التاسع - السنة الاولى - ١٩٧٠ » ثم نشرت مرة ثانية في مجلة الطليعة الدمشقية العدد (٣٦٧) ١٩٧٢ . ونحن نعتمد في بحثنا هذا على النص المنشور في مجلة الطليعة .

الفقيرة خاوي اليمين مصطدما مع حياته القديمة والقيمة ، فاقدنا نسب عشيرته العريق وغناه بسبب زوال الطمة الاقطاعية في ريفنا . والقصة حسب طبيعتها الفلسفية لا تسرد لنا الحوادث كما اوردتها ، بل تلمح الى وجود هذه الحوادث مستندة الى نتائجها العامة .

٢ - تحليل القصة :

تحتاج عملية نقد القصص القصيرة الى الكثير من الدقة والوضوح . اذ ان « القصة القصيرة هي فن التركيز » و« فن الجزئيات » (١١) . فالقصة القصيرة تنطلق من « الجزئيات الى العموميات » اذ تبدو كروى نموذجية متعاقبة حول مشكلة مرحلية ما ، او مفهوم مصادر ومحدد . وتعتمد القصة القصيرة على اسلوب لغوي مكثف ايحائي اقرب الى لغة الشعر منه الى لغة السرد الروائي ، كما نشاهد ذلك في قصص (زكريا تامر) على سبيل المثال لا الحصر . وهذا مما يحتمل على الناقد الادبي اتباع المنهج التحليلي في عملية النقد الادبي من اجل توضيح تلك الرؤى الجزئية المكثفة والنموذجية ، وتبيان حقيقة وجودها وفعاليتها . و« رايات صغيرة ثوابات الصمت الخرساء » قصة قصيرة تقوم على محاكاة وجودية تجري في ضمير وفكر انسان عربي ينحدر من اصل اقطاعي عريق في تقاليده العشائرية ونمط حياته الاجتماعية الموروثة ، ومصدر المحاكاة الوجودية هو هجرة بطل القصة الشاب الى احد البلدان الاوروبية المتقدمة اشواطا بعيدة في مضمار الحياة والفكر والعلم والحرية الاجتماعية . لقد هاجر طليبا لدراسة الطب ، هاجر حاملا معه ذكريات تاريخه وايامه الماضية ، حاملا «الربيع والرياح والدم .. حيث العشييرة والاسوار التاريخية القديمة والمدن النازفة قهرا وعريا في اعياد التنفي ..» . وهذه الامور تكسبون بنموذجية تامة موروثه الاجتماعي ، والانطباعات الراسخة في ذهنه ونفسه عن حياته الاولى التي عاشها في بلاده (الشرق) .

لقد استطاع (ابراهيم الخليل) ان يعرض لنا تلك المحاكاة الوجودية بأسلوبين مختلفين :

الاسلوب الاول : اسلوب الحوار ، او لغة المسرح الموجزة . ويتم بين صاحب الخمارة وبين بطل القصة . ويتضمن هذا الاسلوب الحواري دلالات رمزية وفلسفية مكثفة ، تحتاج الى روية وتامل شديدين ، ووعي استنطاقي للغة الحوارية المتواجدة في القصة بشكل متماسك دقيق ورصين .

الاسلوب الثاني : اسلوب المونولوج الداخلي . وهو عبارة عن مقاطع ايحائية قصيرة زجت ضمن جزئيات الحوار مشكلة مونولوجات داخلية تعبر عن نفسية بطل القصة ، متضمنة في ايحائيتها للفوية بصمات اسلوب شعري مكثف .

لقد جاء الحوار مبعرا عن الافق الفكري للشباب وتصوراته للحياة بأسلوب رمزي متضمن رؤى عقلانية نحو محاكاة الواقع . بينما المونولوج الداخلي جاء مبعرا عن العواطف التي ما زالت متأثرة بحياته الماضية في الشرق ، فمشاعره النفسية تشعه بالفربة والضياع واللاجئ ، حيث اننا اذا قرأنا الحوار بمفرده نتيبين مدى قدرة الشاب على التمييز بين واقعه العربي المتخلف والواقع الاوروبي المتقدم :

« العالم يسبقنا بقرون ونحن ما نزال اسرى المجاز .. نجبن ان نواجه الاشياء صراحة » .

واذا ما قرأنا المقاطع المونولوجية نتيبين اثر الموروث الاجتماعي الذي ما زال يفعل فعله في باطن نفسه :

« ايها المسافر بلا حذاء مذهب ولا انتصارات عبر بوابات الصمت والخروج في عوالم ضبابية تفوح منها رائحة الشيخ والقيصوم .. ايها المسافر بلا قطارات ولا محطات انتظار .. هكذا تظل عيناك تلويبان

(١١) : انظر كتاب (مع نجيب محفوظ) للناقد احمد محمد عطية .

بحثا عن صورة قديمة تسبح على جدار هزيل في زمن القهر والحصار حيث الاشياء مدونة سلفا ولغير صالحك » .

ان هذا المقطع يبرر لنا اهم السمات السيكولوجية للشباب وبدلنا على وعي ثقافي للمشكلة التي يعانها بطل القصة ، وهو يستطيع ان يوضحها بنفسه ، وهي ليست الا رؤيا وجودية فلسفية تحتم عليه العيش خارج نطاق ارادته او اختياره حسب مفهوم (سارتر) حول الحرية الانسانية .

فهو اذا يشمر بالفربة والضياع في عالم يحمل جذور اعماقه في داخل نفسه ، (عالمه الشرقي) ، انه يطلب الخلاص من هذا القلق ، وتأتي لحظة الحرية التي ينالها مفرجا ازمنته ، وهي لحظة ممارسته للعب في العالم الاوروبي ، تلك اللحظة تعبر عن انسحاق تساؤله وغربته ، فهو يقول :

« حين التصقت بها ذات يوم شعرت قطارات العالم تتساقط بانسحاق غريب .. شعرت العالم طفلا مسكونا بالضحك والنكات .. شعرتني امارس .. استنشق .. المس بحرية » .

فالعالم الكيت والحرمان الذي كان يعايشه في الشرق زال من مخيلته التأميلية اثر احساسه بتلك الحرية في البلدان الاوروبية . لكن :
١ - « بوابات الصمت الخرساء » او « ابواب اسيا » الفقيرة .
ب - مشاعره الوجودية حول عالم شرقي يحمل جذور اعماقه في داخل نفسه .

ج - الضياع الذي يشعر به بطل القصة : « لقد اصعبنا وجوهنا يا عزيزي » .

د - المثالية : او التفكير المثالي في عملية البحث عن الحقيقة : « الحكم بحاجة الى رجل واع مثقف » .

كل تلك الامور تظهر له فجأة اثر رجوعه من العالم الاوروبي خاوي اليمين ، وتشعره بالمأساة الحضارية التي تعيشها بلاده ، وتشير في نفسه القلق والفربة عن عالمه الحقيقي الذي يحلم به . فهو ما زال ينتظر .. لقد كان يعيش حياة اللامبالاة في عالم ينحدر من اصل اقطاعي . وعندما عاد من اوربا بدون شهادة علمية ، اصطدم مع ماضيه ، مع « عطش البداوة » ورائحة الشيخ والقيصوم ، و«الربيع والرياح والدم » ، لقد « عانق الحياة الحقيقية في اوربا » وبعودته بدت له حياة الشرق نوعا من التأوه : « اواه يا عطش البداوة وترحال الرعاة في العروق متى تنتهي ؟ .. » .

ان هذه الرؤيا الوجودية للعالم لا تستثير غير الحس الميتافيزيكي ، والحس الرومانسي ، اذ انها تنظر الخلاص من المدم ، وتطرح الوعي النظري المؤطر بالكلمات المجردة ، واذا ما اخذنا ذلك المقطع الذي يعبر عن اشد الارهاسات النفسية اختلاجا :

« نحن يا أخي نواجه العالم بالتهكم وهذا لا يعني اننا مستهترون وانما هي طريقة للاحتجاج .. طريقة للتعبير عن المشاعر ازاء المتناقضات » .

ان عملية تحليل الواقع تقودنا الى استيضاح الرؤيا المستقبلية ، لكن عملية رفض الواقع تقودنا الى طمس التناقضات الواقعية ، وبالتالي طمس الحركة الجدلية للتطور الاجتماعي والوقوف موقفا استاتيكيًا وانهازميا ، وهذه حال بطل القصة ، فهو يقف في النهاية امام الحروف الانكليزية (Stop) ويظل وحيدا ومصلوبا كراية منكسة » .

٢ - تعليق

من خلال التحليل السابق أستطيع ان اطرح عدة امور بشكل مباشر:

١ - اختفاء الرؤيا المستقبلية في القصة .

ب - اخذ وجهة نظر شخص اوروبي حول عالمنا : « انتم فترة مضت » .

ج - انتقاء شخصية « لا مبالية » تنحدر من طبقة اقطاعية عريقة ،

تمثل بطل القصة .

هذه الامور تضعنا امام عمل معقد ، واذا ما اخذنا الامر الثالث ، وهو شخصية بطل القصة ، فاننا نستدل من خلاله على الامرين السابقين :

ان كون بطل القصة فادما من القرب يحمل مفاهيم للثقافة الاوروبية ورواها الفلسفية المجردة ، الى جانب اهماله للعلم « دراسة الطب » التي هاجر من اجلها يقودنا الى نظرة واقعية نلمسها في مجتمعنا وهي المترجمات الفلسفية الغربية الى اللغة العربية التي تعاني نوعا من الغربة بالنسبة لثقافتنا المتنامية في مضمار تطورنا التاريخي والاجتماعي ، وواقعا الاقتصادي .

هذا الانقسام ترك هوة في تكويننا الفكري، وافقدنا حلقة من حلقات الجدل الثقافي المتنامي في وعينا الاجتماعي الذي يشكل مجمل انعكاس العلاقات الاقتصادية التحتية في مجتمعنا . وذلك الامر يعود الى سببين رئيسيين تطرحهما القصة :

ا - السبب الاول : عدم ربطنا بين الثقافة والعلم الفريبيين على حد سواء ، واقتصرنا على استهلاك الثقافة البرجوازية الغربية من ناحية التجديد ، كما هي حالة بطل القصة الذي عاد من البلدان الاوروبية يحمل الرؤيا الوجودية الراقصة لما في الحياة من بؤس وشقاء وحرمان وضيق افق حياتي امام الحريسة المطلقة ، والى جانب ذلك فهو فشل في نيل شهادة الطب التي سافر من اجلها. وبمفهوم اوضح : « العلم الحديث » الذي نحن باشد الحاجة اليه من اجل تطوير بلادنا .

وهنا يمكننا ان نعود الى قصة « الانزلاق الى الداخل » للدكتور (خليل النعيمي) التي تمثل نفس الحالة ، بكونها تتضمن رؤى فلسفية معاصرة ومنتشرة في الحضارة الرأسمالية ، وتعبير عن الرفض والذات والنفس القلقة ، لكنها لا تجد ارضية واقعية من الممكن ان تستند اليها في بلادنا .

ان هذا الشكل المتناقض بين الثقافة والواقع ، غير المترابط بين

حدي الفكر والواقع ، او الفكر والعمل ، او الفكر والتجربة - الفكر الوجودي المتنازم وحاجات الانسان الاساسية في بلدنا المتخلفة ، ان هذا التناقض يتنافى مع خط التطور الاجتماعي المتكامل حسب المفهوم الماركسي حول ضرورة رابطة ونوافق قوى الانتاج مع علاقات الانتاج وما يناسبها من بنى فوقي ايدولوجي . واذا ما كان دور هذا التناقض ملحوظا بعض الشيء ، فسبب ذلك هو مطامح البرجوازية العربية ، واستهلاكها المستمر لهذه الجوانب الكمالية كي تصبغ مواقفها لكونها تشمل مجمل ظروف كمالية بعيدة عن حاجات شعبنا الاساسية .

ب - السبب الثاني : استحالة الربط بين الثقافة الغربية المعاصرة وحقبة وافنا العربي وثقافته . فالثقافة الغربية تطرح مشاكل الوجود : « الحرية ، الرفض ، .. » كما جاء في القصة . والواقع العربي يطرح : « عطش البداوة » والجوع والفقر وقضايا السلاح والعادات والتقاليد البالية، ومشاكل العالم الثالث الاقتصادية : « ابواب آسيا الفقيرة » كما جاء في القصة ايضا :

بطل القصة : « التغيير يحتاج الى تصحية » .

صاحب الحانة : « انتم فترة مضت » .

- لا اعتقد .

- نعلمون احلام الموى .

- الموتى لا يحلمون .

« مع ان الحياة الحقيقية بالنسبة لنا ابعد من هونولولو وغوانيمالا وسان فرانسيسكو الا ان الرقة هي محطة الانتظار الوحيدة التي يمكن ان ندخن فيها ونقرأ الصحف ونكفي على اسوارها التاريخية القديمة بنواصية وكسل » .

- كيف تعاملون الفلاح ؟

- كما تعامل الارض، بقسوة. لانها بدون قسوة لا تنتج . فمن الجرح

في جلدنا نبت السنبل والشجرة .

حب

دار الآداب تقدم

ثقافتنا

في مفترق الطرق

بقلم

الدكتور لويس عوض

دراسات وابحاث جريئة تتناول الوضع الثقافي العربي والمشكلات التي يعانها

صدر حديثا

٦٥٠ ق . ل